أحمد الرفاعى

«فى السجن الحربى تعلمت أن أتزود بصبر لا ينفد، وبسخرية من الحكام لا تهدأ. كان الضابط المسئول يفتح باب الزنزانة كل صباح ممسكا بورقة فى يده ويصيح: المسجون أحمد الرفاعى السيد عبد الله. وأجيب وفق الأوامر: أفندم. فيصيح: حكم عليك بالإعدام. وأجيب: علم يا أفندم،كنت أعلم أنه يكذب لكنه الإرهاب النفسى اليومى الذى تحول مادة للسخرية».

أحمد الرفاعى

(من حوارى معه)

الأب عمدة طناح، وهى قرية قرب المنصورة، والعمودية تنتقل لكنها لا تغادر الأسرة، الأب وفدى متعصب. والابن بدأ وفديا أيضا وعندما كان أحمد فى الثامنة طاف مع فلاحى القرية وهم يهتفون «يسقط صدقى – يحيا الدستور – النحاس خليفة سعد – هل هلالك يا نحاس» وأطاح صدقى بأبيه من العمودية لكنها ذهبت إلى عمه الذى كان الوحيد المؤيد لصدقى فى القرية، وكان عنيفاً مع الوفديين خاصة. ومع الفلاحين يسير وسط الخفراء ومعه كرباج اشتهر باسم «الأزعر» لكن لا الخفراء ولا الأزعر أمكنهما إسكات «هل هلالك يا نحاس» فأتى الهجانة الذين فرضوا حظراً للتجول من الغروب حتى الفجر. لكن دهاء الفلاحين يهزم الجميع، نار تشتعل فى كومة قش أو حطب فى إحدى حوارى القرية فيستجير العمدة بالأهالى ليخرجوا من بيوتهم لإطفاء الحريق. والعمدة يحظر دخول أى صحف وفدية إلى القرية وتأتيه كل يوم لفافة ضخمة من جريدة «الشعب» التى كان صدقى يصدرها، كانت توزع مجانا لكن لا أحد يمد يده إليها. لكن نسخة من جريدة «الجهاد» الوفدية كانت تهرب من المنصورة كل يوم ليلتف الفلاحون حول مأذون القرية «الشيخ محمد شمس الدين» ليبدأ القراءة كل يوم بتلاوة شعار الجريدة.

قف دون رأيك فى الحـــيـــاة مـــجـــادهـــاً

إن الحـــيـــاة عـــقـــيـــدة وجـــهـــاد

والفتى ابن الثامنة يندس وسط المجتمعين ليستمع ويجاهد كى يفهم. ويجرى صدقى باشا انتخابات أرادها مزورة لكن الأب وأعيان الناحية جميعا يخطفون الصناديق المزورة ليلقوا بها فى الترعة. وقبلها قرر صدقى أن يقلد النحاس فى زيارات للريف، وصدرت الأوامر بحشد الفلاحين على جانبى الطريق إلى قرية إخطاب المجاورة، وتآمر الأعيان. الفلاحون اختفوا ويمر موكب صدقى باشا بين صفين من الجواميس والأبقار التى ربطها أصحابها لاستقبال صدقى، ويضيق النظام ذرعاً بالأب فيصدر أمراً بالقبض عليه ضمن مجموعة من الأعيان الوفديين. ومن المنصورة الابتدائية الأميرية إلى المنصورة الثانوية حيث ترأس أحمد جمعية الخطابة وأتقن فنون الزعامة والخطابة. وإلى كلية الحقوق جامعة فؤاد الأول يأتى فى زمن كان أبناء جيله فى حيرة وخاصة الوفديين منهم. كان جرح ٤ فبراير ١٩٤٢ يدمى قلوب الجميع ويمنحهم قدراً كبيرا من التردد إزاء الزعامة الوفدية. وفى ذات الوقت كانت مدافع لينينجراد وستالينجراد تدوى لتهزم النازيين الغزاة ولتحقق انتصاراً بامراً للدولة الاشتراكية «الاتحاد السوفيتى» وتتفتح أذهان هذا الجيل على رؤى جديدة وعالم جديد.

وفى ساحات الجامعة يلتقى بمصطفى هيكل الذى كان قد أسس تنظيما صغيرا أسماه «القلعة» وينضم إليه، لكنه يبقى على تماس مع مجموعة الطلاب الوفديين الذين تأثروا مثله بالموج اليسارى وأسس معهم «الطليعة الوفدية». وتأتى الإجازة الصيفية ليعود الفتى محملا بفكره الجديد إلى فلاحى طناح التى استقبلت ابن حضرة العمدة هو وفكره الجديد بترحاب وانتماء.. بما منح طناح اسم «القرية الحمراء».

* * *

«وعندما قبض على فى طفولتى فى قضية الشيوعية الكبرى كان فلاحو طناح الأكثر وعيا وشجاعة ودهاءً وقدرة على مراوغة المحقق المسكين، كان منهم عم سيد، فلاح عجوز صامت لكنه يفهم كل شيء ويوجه الجميع بنظرة من طرف عينه. وولد شقى اسمه الشحات، وسيد آخر مغنى مواويل فى الأفراح، أذكر أن وكيل النيابة سأله: تعرف ماهر قنديل (وكان مدرس ثانوى ومسئول الدقهلية وأيضا مسئول طناح)، فأجاب سيد الشاب:

أعرفه يا بيه، لكن لمحة من عين سيد العجوز أفهمته بأن هذا خطأ. فتهلل وجه المحقق فأخيرا وجد طرف خيط فى التحقيق الممل، وسأل سيد بحنان: تعرفه منين يا شاطر؟ فرد سيد بكفاءة من اعتاد أن يرتجل المواويل: بيمر فى بلدنا يا باشا. وسأله المحقق: بيمر يعمل إيه يا شاطر؟ وأجاب: بيسقى الغيطان يا باشا. ودهش المحقق: مين اللى بيسقى الغيطان يا ابن...؟ فرد الفلاح الفصيح :نهر النيل يا باشا. مش حضرتك برضه سألت على نهر النيل؟ وجن جنون المحقق. وكان السؤال دوما عن أحمد الرفاعى والإجابة دوماً: «ده ابن حضرة العمدة، هو فين واحنا فين». هرب أحمد الرفاعى لفترة، ثم قبض عليه وساقوه إلى سجن الأجانب وعندما علم المأمور أنه من طناح قال له: شوف ما دام الشيوعية وصلت للفلاح أبو رجلين مشققة يبقى مفيش فايدة».

ومع وصول حكومة الوفد إلى الحكم فى ١٩٥٠ يفرج عنه. ولا تمضى سوى أيام قليلة حتى يأتيه نبأ استشهاد زميله فى الزنزانة صلاح بشرى (طالب سودانى بكلية الهندسة) وارتبكت حكومة الوفد التى تحلم بعلاقات حميمة مع الشعب السودانى، وارتبك القصر الملكى الذى كان يتمسك بلقب «ملك مصر والسودان»، وسارت فى شوارع القاهرة جنازة مهيبة اندفعت نحو المطار حيث كان القصر الملكى قد خصص طائرة خاصة لنقل الجثمان إلى عطبرة، ومع تدافع الجموع قبل ممثل القصر الملكى المصاحب للجثمان أن يركب معه ممثل للمتظاهرين، وكان أحمد الرفاعى. وفى الطائرة سأله ممثل السراى بتعرف تخطب فاستعان أحمد بدهائه الريفى، وقال لا. فأملاه ممثل السراى اكتب يا ابنى «إن جلالة الفاروق أعز الله ملكه وحمى عرشه يعزى شعبه فى السودان فى وفاة ابنه صلاح»، ويمضى أحمد فى دهائه ويتبدى فى أنه يحاول تدريب نفسه على إلقاء هذه الكلمات.

وتهبط الطائرة فى مطار عطبرة، ويدفعه ممثل السراى إلى المقدمة وأوقفه على سلم الطائرة طالبا منه أن يلقى الكلمة.. ويتقدم أحمد الرفاعى ليهتف فى الجموع السودانية المحتشدة «يسقط فاروق قاتل صلاح.. يسقط فاروق عدو الشعب»، وتردد الجماهير الهتاف. وفى طريق العودة كان ممثل السراى محتقن الوجه وصاح فى ضابط اللاسلكى طالبا منه إبلاغ المطار بضرورة استدعاء أحد ضباط البوليس السياسى ليقبض على الولد الذى سب الذات الملكية. لكن ضابط اللاسلكى كان معجبا بهذا الفتى فقال: آسف يا أفندم اللاسلكى عطلان.

وفى الطريق إلى البيت عرف أن البوليس فى انتظاره هناك. فهرب من جديد.

وتأتى ثورة يوليو ويأتى معها تأييد «حدتو» لها. ألم يكن رفاقها هناك على رأس تنظيم الضباط الأحرار. ويزداد حماس الرفاعى بعد قانون الإصلاح الزراعى، فهو يعرف قيمة الأرض بالنسبة للفلاح. لكن إعدام خميس والبقرى بعد إضراب كفر الدوار باعد بين «حدتو» والضباط. وتنشب معركة النضال من أجل الديمقراطية والتعددية الحزبية والانتخابات ويهرب أحمد الرفاعى ويكون فى هذه الأثناء عضواً فى اللجنة المركزية «لحدتو» ويكلف تأسيس الجبهة الوطنية الديمقراطية هو وعدد آخر من الرفاق. وسريعا يستعيد أحمد علاقاته بالطليعة الوفدية وبوفدى تقدمى آخر هو أبو بكر حمدى سيف النصر وبأعضاء من الحزب الاشتراكى (إبراهيم يونس وغيره) وبعض ضباط الجيش (مصطفى كمال صدقى ومجموعته) وأعدوا بيانا ببرنامج الجبهة. ثم توالت الضربات وقبض عليه واعتقل فى سجن بنى سويف، وذات يوم جرى ترحيله إلى القاهرة، وفى القطار حضر ضابط ليجلس إلى جوار ضابط الحراسة، إنه مأمور مركز بوش همس فى أذنه: «يا رفيق عاكف انت رايح السجن الحربى والوضع هناك سيئ جدا» قال: أحمد: «عاكف مين؟» فرد عليه أنا: «زميلك فى حدتو. وبعدها عرف أنه الرفيق عز الدين صبرى. ووصل أحمد فعلا إلى السجن الحربى وما أدراك ما هو السجن الحربى، وهناك واجهوه بكثير من نشاطاته ومنها أنه كمسئول عن منطقة القاهرة أشرف على تهريب ثمانية من الرفاق من معتقل روض الفرج وأعد برنامج الجبهة الوطنية الديمقراطية، وحتى نضاله ضد الاستعمار فى منطقة القنال (١٩٥١) كان واحدة من التهم. ثم لا يلبث أن يستبعد من القضية ويرسل إلى المعتقل حتى ١٩٥٦.

ويشهد عام ١٩٥٦ قمة النضال لهذا الرجل الذى لا يهدأ. كان العدوان الثلاثى. وصدر له قرار من الحزب بالسفر إلى بورسعيد لينضم للمقاومة الشعبية هناك. وعبر بحيرة المنزلة نظم أحمد الرفاعى خط اتصال دائم وتوالى وصول الرفاق والأصدقاء: إبراهيم هاجوج ابن بورسعيد وكان عينهم المبصرة لكل شىء، أو من خارج بورسعيد الشيخ عبد السلام الخشان – سعد رحمى – عبد المنعم شتلة – فتحى مجاهد – عبد المنعم القصاص – أمينة شفيق – محسن لطفى السيد – إبراهيم المانسترلى. وهناك التحم الجميع مع نضال لا يهدأ قاد شعب بورسعيد فى مواجهات مسلحة مع الاحتلال وفى مظاهرات صاخبة ضده.

وسريعا ينتظم النضال. ثمة ثغرة ينفذ منها القادمون ومعهم رجال جدد وسلاح.. إنه منزل قديم تقيم به سيدة ضخمة تجلس طوال النهار على شاطئ بحيرة المنزلة تبيع وتشترى لكنها فى الواقع نقطة مراقبة وحلقة اتصال، إنها خالتى «أم السعيد الضو»، وثمة مطبعة صاحبها جاهز، وعبد المنعم القصاص الفنان يعمل معه ليصدر جريدة «الانتصار» وفى خضم ارتباكات عديدة تأسست الجبهة المتحدة للمقاومة الشعبية التى نظمت كل شىء فى المدينة من التموين وحتى ضبط الأسعار إلى الكفاح المسلح إلى المظاهرات الشعبية. وعندما قامت قوات الاحتلال باعتقال بعض المواطنين دعت الجبهة المتحدة إلى مظاهرة. لكن الغريب أن محافظ القنال أصدر قرارا بمنع المظاهرة «حفاظاً على الأرواح» لكن أحمد الرفاعى يقف خطيبا مصمما على إنجاح المظاهرة وعلى مواصلة النضال ضد الاحتلال. وتنجح المظاهرة رغم الطائرات التى حلقت فوقها والمدرعات التى أحاطت بها، ويواصل أحمد الرفاعى ورفاقه معركتهم ضد الاحتلال بالسلاح تارة وبالمظاهرات الشعبية تارة أخرى.. حتى الانتصار.

وذات يوم استدعى لمقابلة ممثل المخابرات داخل بورسعيد المحتلة. الرجل الذى كان أنشط مسئول داخل بورسعيد أبلغه تحيات الرئيس عبد الناصر، «وشدوا حيلكم.. وده مبلغ بسيط يساعدكم فى مواصلة عملكم»، المبلغ البسيط كان يملأ حقيبة سفر كبيرة، لكن إجابة أحمد الرفاعى كانت موجعة، «إحنا فعلا بنحتاج فلوس لكن بتيجى لنا من المواطنين العاديين. ولسنا بحاجة إلى أى أموال». الغريب أن هذا الموقف أثار حفيظة الكثيرين من المسئولين ضده فيما بعد. وفى بورسعيد تألق القائد المناضل بالسلاح وبالجماهير معا، وأصبح خطيب المظاهرات وقائد العمل المسلح، وتألقت كتيبة الرفاق فى عمل نضالى متصل، سلمهم ممثلو المخابرات رشاشات، وبعد تحرير بورسعيد أصدر أحمد الرفاعى قراراً بإعادة السلاح لأصحابه، مؤكدا «نحن لا نخون حليفنا». لكن الحليف ما لبث أن انقض عليهم بعد عامين فقط وعذبهم فى السجون عذابا لا يحتمل.

ومن بورسعيد يعود أحمد الرفاعى إلى النضال الحزبى مسلحاً بخبرات وفيرة، وتتواصل معركة توحيد الشيوعيين ويصبح واحداً من قادة الحزب الذى توحد فيه الجميع ثم ما لبث أن انفرط عقده.. ومن جديد يعود إلى السجن إثر حملة شرسة ليلة رأس السنة ١٩٥٩، وأمام المجلس العسكرى العالى يقدم أحمد الرفاعى دفاعا هز وجدان الجميع.

وحضر معه شهود ممن شاركوا معه فى معارك بورسعيد، لكن القضاة أصدروا حكمهم بالسجن ثمانى سنوات أشغال شاقة.

وفى سجن المحاريق استعاد الرفاعى كفاءته كفلاح أصيل وأصبح مسئولا عن المزرعة التى جرى استصلاحها بسواعد الرفاق «ثلاثون فدانا» وأمدت السجناء والسجانين بحاجاتهم من الخضراوات.

وفى ١٩٦٤ يفرج عنه.. ليقفز سريعا إلى موقع رئيس النقابة العامة لعمال الزراعة وإلى نائب رئيس الاتحاد العام لعمال مصر. ويضطر النظام إلى إدخال تعديل على قانون النقابات لحرمانه من حق الترشح وقد أسماه النقابيون «تعديل أحمد الرفاعى».

وإلى اليمن الجنوبى يسافر خبيرا للأمم المتحدة، وهناك يصبح واحداً من أهم الشخصيات التى تشارك فى الحكم. وينجح فى إقامة إذاعة مصرية يديرها الحزب الشيوعى المصرى ويوجهها إلى شعب مصر.

وإذ يحين تقاعد المناضل يعود مرة أخرى فلاحا ليستصلح عديداً من الأفدنة فى النوبارية.

ويرحل أحمد الرفاعى كما بدأ فى طفولته مخلصا للوطن، وأيضا مخلصا للحزب الذى ظل يعمل فيه حتى آخر نسمات الحياة.